إضاءة

عمر أبو ريشة... محطات حياتية

عمر أبو ريشة[1].. شاعر الحب والجمال في دنيا العرب. وحامل راية المعارضة ومقارعة الخطوب والثورة ضد الاستعمار، عندما كان مهيمناً على الوطن العربي، بأنفاسه الكريهة وأفكاره الحاقدة، فظل بلا هوادة ودون أن ينتابه الفتور والاستسلام، يغني جراح أمته النازفة، ويؤرخ انتصاراتها بحروف من نور، ويستنهض الهمم والعزائم، ويبثّ روح المقاومة الشعبية، حتى رحل الغزاة الدخلاء عن أرضنا العربية.

ولم يكتف بذلك ،بل اتجه وبيقظة فكرية واعية ، للتصدي للحكومات الوطنية القديمة،ذات الاتجاهات المتخلفة عن مناحي الحياة الجديدة والنهضة الشاملة.

ودعا شاعرنا العرب إلى مقارعة الصهاينة ونزالهم قبل أن يستفحل خطرهم فيهددوا الوجود العربي برمته. وحين غفت العيون واندلعت الخصومات العربية المريرة هنا وهناك...

استبيحت المقدسات... وتواصل ليل المجازر في فلسطين المحتلة. وأمست الأمة العربية في حالة صعبة لا تحسد عليها، في هذه الأيام نتيجة الضعف الشديد في الواقع العربي ، وابتعاد بعض الحكّام عن الاحتكام إلى شعوبهم لاسيما فيما يتعلق بالقضايا القومية المصيرية.

[1] كان الشاعر يلتزم الواو في (أبو ريشة) أينما وقعت لأنها شهرة ثابتة له. وقد عملنا برأيه.

وكان شعره يعلو ويصدح في كل مناسبة قومية، وفي كل حفلة وطنية، فتتلقفه الأسماع الظامئة، و تتنافس في نشره كبريات الصحف والمجلات السورية والعربية ، وتنشده الجماهير:

أمـــتي ، هـــل لـــك بـــين الأمـــم ... منـــــبر للـــــسيف أو للقلـــــم

أتلقَّـــــاك وطـــــر في مطـــــرقٌ ... خجـــلاً مـــن أمـــسك المنـــصرم

ويكـــاد الـــدمع يهمـــي عابثـــاً ... ببقايـــــا كبريـــــاء الألم !

أمـــتي ! كـــم غـــصة داميـــةٍ ... خنقـــت نجـــوى عـــلاك في فمـــي

أي جـــــرح في إبـــــائي راعـــــف ... فاتـــــه الآســـــي، فلـــــم يلتـــــئمِ

ألاســـــرائيل تعلـــــو رايـــــةٌ ... في حمـــــى المهـــــدِ وظـــــلِّ الحـــــرمِ !

كيـــف أغـــضيت علـــى الـــذل ولم ... تنفـــــضي عنـــــك غبـــــار الـــــتُّهمِ

ـ ٢ ـ

ومثلما اختلف دارسو حياة بدوي الجبل: محمد سليمان الأحمد، على تاريخ ولادته، اختلف دارسو حياة شاعرنا،على التاريخ الذي خرج فيه هذا الشاعر العبقري إلى الوجود، ولعلّ التفصيل التالي يبين هذا الأمر:

obeikandl.com

١. ذكر الدكتور سامي الدهان مرة أن عمر ولد سنة ١٩٠٨ م، وذكر مرة أخرى أنه ولد سنة ١٩١٠ م.

٢. ذكر سامي الكيالي أنه ولد سنة ١٩١٠ م.

٣. ذكر أحمد الجندي أنه ولد سنة ١٩٠٨ م.

٤ ـ ذكر روكس العزيزي أنه ولد سنة ١٩٠٩ م.

٥ ـ ذكر حنا الفاخوري أنه ولد سنة ١٩١٢ م.

٦ ـ ذكر عبد الله يوركي حلاّق أنه ولد سنة ١٩١٠ م.

٧. ذكر معدّ هذا الكتاب في الجزء الثالث من كتابه (يحدثونك عن أنفسهم) أنه من مواليد سنة ١٩١٠ م، استناداً إلى قول الشاعر نفسه، الذي ورد في سياق لقاء صحفي أجريته معه.

وفي هذا الشأن يقول شقيقه الدكتور ظافر أبو ريشة في رسالة أرسلها إلى الأستاذ الكبير عبد الله يوركي حلاق بتاريخ ١٣ حزيران سنة ١٩٩١ م ما لفظه:

« ولد أخي عمر في دار جدّه بعكا في ١٠ نيسان ١٩١٠ م قبيل الفجر، ولما بُشِّرَ جدي بأن ابنته وضعت غلاماً سمّاه عمر، وقرّبوه منه وأذّن له في أذنه، وهي عادة مستحبة ومألوفة في تونس (وغيرها) عند شيوخ القوم، إذْ أن جّده (لأمه) من تونس. أما منبج فهو البلد الذي عُيّن أبي فيه (قائم مقام) بعد رجوعه من عكا. أي حاكماً إدارياً أو مدير منطقة ».

ويعرف الشاعر نفسه بقوله:

«أنا بدوي من عشيرة بدوية هي عشيرة الموالي، من شيوخها، من كبارها، عند هذه العشيرة مميزات كبيرة منها الكرم والرجولة. لم يخضعوا يوماً لحكم، حتى الحكم التركي قاوموه.

جدي حارب الأتراك فأخذوه إلى استانبول. وجدي أبو والدتي بقيَ هناك، وتعلم هناك، ورجع إلى البقاع، إلى قرية اسمها القرعون. أنا لم أولد في القرعون، والدي

obeikandl.com

ولِد فيها. والذي تحضر لأن والده صار شيخ الإسلام. جدي الشيخ مصطفى كان متصوفاً كبيراً، تأثر بجدي والد أمي، والذي رجع لتاريخ أجداده، فحكم عليه الأتراك بالإعدام، لأنه كُلّف بقتل الأرمن ولم يقتلهم. أرسلهم إلى العشيرة، فحوكم غياباً. وحكم عليه بالإعدام ، والذي أنقذه من الإعدام هو الشيخ أسعد الشقيري، والد الزعيم المعروف أحمد الشقيري من عكا».

بقي أن تعرف من أين جاءت هذه التسمية «أبو ريشة» ؟

يقول الأديب يعقوب العودات المعروف بلقب (البدوي الملثم) ما لفظه:

« أسرة أبو ريشة في الأصل فرع من آل القادري المعروفين في البقاع. وتنتسب إلى الشيخ علي القادري، وهو أول من كنّي بـ (أبو ريشة) بعد أن خلع عليه أحد سلاطين بني عثمان عمامة تعلوها ريشة مذهبة ».

وإلى هذا الرأي يميل المؤرخ الشهير عيسى اسكندر المعلوف. ويحضرني في هذا السياق الطرفة التالية:

كان الشاعر المهجري الياس فرحات يزور صديقه وصفيه عمر أبو ريشة، عندما كان شاعرنا سفيراً لسورية في البرازيل، وبينما كان الشاعران الكبيران في حديث ودي، دخلت عليهما «رفيف» كريمة الشاعر عمر أبو ريشة، وكلها رقة وأناقة وحيوية، وكانت في ربيعها العاشر، فقال الياس فرحات على الفور وبصورة ارتجالية:

رفيـــفُ لأنـــتِ رفيـــفُ المنـــى

وأنـــت الـــسعادةُ في العيـــشةِ

أخـــاف عليـــك نـــسيم الـــصبا

لأن أبـــــــــاكِ.....

فقاطعه عمر بقوله: « أبو ريشة » !!

فقال فرحات بلهجته اللبنانية الظريفة: « **يقبروني اللي بيفهموا** »....

وفي ما يلي لمحات خاطفة عن الشعراء من أهل عمر:

- شافع أبو ريشة، والد الشاعر، كان شاعراً موهوباً. كتب بضعَة قصائد في رثاء أمير الشعراء أحمد شوقي، وحافظ إبراهيم، والبطل الليبي عمر المختار.

- خير الله اليشرطية، والدة الشاعر، سيدة نبيلة في حديثها وصفاتها. لم تتعلم في مدرسة ولكنها تكتب وتقرأ على سجيتها وبعفويتها.

- زينب أبو ريشة، شقيقة الشاعر، شاعرة بليغة وناثرة مجيدة.

- ظافر أبو ريشة، شقيق الشاعر، له مجموعات شعرية مطبوعة، رثى شقيقه عمر بقصيدة مؤثرة.

- مريم القادري، والدة أبيه، كانت محدثّة موهوبة، ولها اهتمامات بالتصوف الإسلامي فكان الخاصة والعامة يستمعون إليها بكل جوارحهم.

يروى عنها أنها كانت تعطي درساً في المسجد الأموي بدمشق، فاعترضها أحد المتزمتين قائلاً بتهكم: استري يدكِ يا حرمة ..!!

فردت عليه دون تلعثم: أغضض بصرك يا جاهل، أين أنتَ مما نحن فيه ؟

فاعتذر منها وقال: سامحيني. ثم وبخته ثانية في قولها: أيَّ بصرٍ أغضضت ياهذا يا محترم ؟ ثم أسمعته هذا البيت:

وإغضاء طرف العين ليس بنافعٍ

إذا كان طرفُ القلب ليس بمُطرق

درس عمر في صغره القرآن الكريم، كعادة أبناء جيله، وتعلم الإنكليزية في سن مبكرة، ثم استقر مع أسرته في حلب، حيث تابع هناك تحصيله الدراسي. ومن

حلب الشهباء توجه إلى بيروت ودخل الجامعة الأمريكية. ثم أوفده والده إلى مدينة «مانشستر» في إنكلترا، لدراسة الكيمياء، ولكن عشقه للشعر جعله ينصرف عن دراسة الكيمياء وتعقيداتها، وطبيعة الألوان والأصبغة على الأنسجة القطنية والصوفية.

وفي «مانشستر» وكان ذلك في عام / ١٩٣٠ م / خفق قلبه للحب، إذْ أحب فتاة انكليزية وأرادها زوجة له، وقدم إلى حلب ليحمل إليها هدايا أهله ورضاهم بالزواج، من باب أخذ العلم، فلما عاد إلى «مانشستر» قيل له إنها ماتت، فرثاها بقصيدة وجدانية شدت الأنظار إليه، ومنها قوله:

ما أرى الموت مطفئاً شعلة الحُسن

ولا بالمزيل سحرَ الجمال

زادك الموتُ فوق حسنكِ حسنا

وكساهُ ببردةٍ من جلال

ويرجع الشاعر إلى وطنه عام / ١٩٣٢ م /، ليكتب صفحة جديدة في ديوان الشعر العربي الخالد، ويرضي نزعته القومية والوطنية، من أجل الاستقلال والوحدة العربية الشاملة، فكانت تلك القصائد المدوية التي أطلقها شاعرنا من على المنابر:

كم نَبَتْ أسيافنا في ملعبِ

وكبت أفراسنا في ملعبِ

من نضالٍ عاثرٍ مصطخبِ

لنضالٍ عاثرٍ مصطخبِ

شرف الوثبة أن تُرضي العلى

غُلِبَ الواثبُ أم لم يُغلبِ !

obeikandl.com

أو كقوله:

هيكـلَ الخلـد لا عَـدَتْك الغـوادي

أنـــــت إرث الأمجـــــاد للأمجـــــادِ

بوركـتْ في هـواك كـلُّ صـلاةٍ

صـــــعّدتها حنـــــاجر العِبّـــــادِ

. ٣. وظائفه الرسمية:

. عيّن عمر أبو ريشة بعد عودته من إنكلترا إلى ربوع الوطن، مديراً لدار الكتب الوطنية في حلب، وبقي في هذه الوظيفة حتى سنة / ١٩٤٩ م /، حين ألتحق بالسلك الدبلوماسي.

. عيّن سنة / ١٩٤٩ م / ممثلاً لسورية في البرازيل.

. عيّن سنة / ١٩٥٠ م / سفيراً لسورية في البرازيل.

. عيّن سنة / ١٩٥٢ م / سفيراً لسورية في الأرجنتين.

. عيّن سنة / ١٩٥٤ م / سفيراً لسورية في الهند.

. عيّن سنة / ١٩٥٩ م / سفيراً للجمهورية العربية المتحدة في النمسا.

. عيّن سنة / ١٩٦١ م / سفيراً لسورية في الولايات المتحدة الأمريكية.

. عيّن سنة / ١٩٦٤ م / سفيراً لسورية في الهند.

. أحيل سنة / ١٩٧١ م / على التقاعد، فعاد إلى لبنان ليجعل بيروت مقراً له، ولكن اندلاع الحرب الأهلية الدامية فيها، جعله يغادر بيروت بعد أن تعرض منزله للقصف العشوائي، فراح يتنقل في بلاد الله الواسعة، في الشرق وفي الغرب، وإن كان يقضي معظم أوقاته، على حد تعبير الدكتور الشاعر جميل علوش، في المملكة العربية السعودية، وبتحديد أدق في المنطقة الشرقية من المملكة حيث يعمل ابنه.

obeikandl.com

ويروي الأديب الكبير عبد الله يوركي حلاق، صاحب مجلة الضاد الحلبية، هذه القصة الواقعية المستمدة من صميم حياة الشاعر عمر أبو ريشة، ونحن إذْ ننشرها فإنما نهدف إلى تسليط الضوء على جوانب مجهولة من حياته، أو معروفة على نطاق ضيق:

« بتاريخ الثلاثين من شهر آذار عام / ١٩٤٩ م/، وقع انقلاب خطير قام به الزعيم حسني الزعيم المولود في حلب سنة ١٨٩٩ م، وكان أول انقلاب عسكري عرفته البلاد العربية وأجمع الشعب على تأييده ـ في البدايات ـ. ولما صدر المرسوم المتعلق بتأليف الوزارة في مساء السبت ١٦ نيسان ١٩٤٩م تحت رقم ٢٠٩، احتفظ الزعيم لنفسه برئاسة الوزارة وبوزارتي الدفاع والداخلية، وأسندت بقية المناصب الوزارية إلى الأمير عادل أرسلان، الأستاذ خليل مردم بك، السيد نوري الأبيش، السيد حسن جبارة، الأستاذ فتح الله الصقال، والأستاذ أسعد الكوراني وهما من أكبر المحامين في حلب ومن أحسن الناس سمعة وخلقاً وأدباً.

كان الزعيم حسني الزعيم، والأستاذان الصقال والكوراني، والثلاثة من حلب، على إعجاب كبير بالشاعر عمر أبو ريشة الذي كان يومئذ مديراً لدار الكتب الوطنية في حلب ـ كما ذكرنا سابقاً ـ، وكانت الحكومة في حاجة إلى سفراء ووزراء مفوضين. فاقترح الأستاذ فتح الله الصقال أن يعين الأستاذ أبو ريشة سفيراً لنا في البرازيل. فاعترض السيد حسن جبارة وقال إن تعيينه مخالف للقانون، لأنه لا يحمل شهادة جامعية تخوله هذه الحق وتتيح له تسلم هذه السفارة، وعندئذ تصدى له الأستاذ الصقال قائلاً: ولكن عمر أكبر من كل الشهادات، فهو يجيد اللغة الإنكليزية، كما يجيدها أحسن علمائها ويعرف الفرنسية، وفضلاً عن ذلك فإنه ذو عبقرية شعرية ترفعه إلى مصاف أعظم الشعراء. وأبناؤنا العرب في البرازيل يعشقون الشعر العربي، وأنا متأكد أنه سيجمع القلوب من حول سورية وسيؤدي لبلاده أجلَّ الخدمات. وأيَّدَ الزعيم والأستاذ الكوراني وبقية الوزراء الأستاذ الصقال وبقيَ حسن جبارة مخالفاً. وهكذا اسند منصب سفارتنا في البرازيل إلى عمر أبو ريشة فكان أحسن سفير عرفته تلك البلاد الواسعة، وجاليتنا العربية هناك،

وأقطاب الشعر العربي في ذلك المنقلب من الأرض من أمثال: الشاعر القروي، والياس فرحات، وشفيق معلوف، وشكر الله الجر، وميشيل مغربي ونعمة قازان.

وكان عهد عمر أبو ريشة في البرازيل عهداً ذهبياً، ارتفع فيه اسم العرب والعروبة، وكان السفير المخلص الحريص على خدمة مواطنيه».

٤. ألقابه العلمية ومناصبه الفخرية:

- عيّن عضواً مراسلاً لمجمع اللغة العربية بدمشق.

- عيّن عضواً للأكاديمية الأدبية البرازيلية.

- عيّن عضواً للمجمع الهندي للثقافة العالمية.

- دكتوراه ثقافية منحت لعمر أبو ريشة، من الجامعة العالمية، وبالتعاون مع الطاولة المستديرة لجامعة الآداب في العالم في توكسون أديزونا.

- مُنح العديد من الأوسمة من دول مختلفة، عربية وأجنبية، وكان آخرها وسام الاستحقاق اللبناني من الدرجة الأولى، من الرئيس اللبناني الأسبق الياس الهراوي.

تراثه الشعري المطبوع:

- ديوان بعنوان (شعر) صدر في حلب سنة ١٩٣٦.

- ديوان بعنوان (من عمرأبو ريشة شعر) صدر في بيروت سنة ١٩٤٧.

- ديوان بعنوان (مختارات) صدر في بيروت سنة ١٩٥٩.

- مجموعة شعرية بعنوان (غنيت في مأتمي) صدرت في دمشق سنة ١٩٧١.

- ديوان عمر أبو ريشة (المجلد الأول) صدر عن دار العودة ـ بيروت سنة ١٩٧١.

- مجموعة شعرية بعنوان (أمرك يا رب) صدرت في جدة ـ المملكة العربية السعودية سنة ١٩٨٠. وقد وصف الشاعر هذه المجموعة الشعرية «بأنها من القصائد والأبيات المتفرقة أسمعت ـ الملك ـ الفيصل بعضها في السعودية، وبعضها في الولايات

المتحدة الأمريكية أيام كنت سفيراً لسورية في واشنطن وممثلاً لها في الأمم المتحدة في نيويورك في أوائل الستينات.

وكل ما في دفتي هذا الكتاب من شعر لم ينشر من قبل في ديوان من دواويني - السابقة - باستثناء القصيدتين « مقدمة الملحمة » و « خالد بن الوليد »، اللتين أحببت أن أُدخلهما في نطاق هديتي المتواضعة هذه، لأني ألقيتهما أمامه في مكة المكرمة وكان لهما في نفسه النبيلة الأثر الطيب».

- مجموعة شعرية بعنوان (من وحي المرأة) صدرت في دمشق - دار طلاس سنة ١٩٨٤ م.

- ديوان بالإنكليزية بعنوان (التطواف) صدرت في بيروت عن دار الكشّاف سنة ١٩٥٩.

- مسرحية شعرية بعنوان (ذي قار) صدرت في حلب سنة ١٩٣١ م.

- مسرحية (محكمة الشعراء).... بالإضافة إلى مسرحيات شعرية أخرى لم تخرج للنور بعد لأسباب مجهولة....

ويشير الناقد الدكتور جميل علوش إلى حقيقتين هامتين في شعر عمر أبو ريشة:

الأولى: أنَّ عمر كان يعاود النظر في قصائده القديمة التي يُعّدها للنشر ثانية. وهذه المعاودة تسوقه إلى أشكال من التبديل والتغيير في عنوان القصيدة،وفي هيكلها وفي تاريخ نظمها.

الثانية: أنَّ عمر لسبب أو لآخر يحرص على إخفاء بعض شعره. وكمثال على ذلك نذكر قصيدة له بعنوان (بنت قاسيون)، نظمها في رثاء الشهيد الدكتور عبد الرحمن الشهبندر، وقصيدة أخرى في رثاء الشهيد العقيد عدنان المالكي، الذي استشهد غيلة في الملعب البلدي بدمشق، في ظروف قد تبدو للمؤرخ المحايد غامضة وبالغة التعقيد....

والقصيدتان المشار إليهما من شعره الرائع. ولا نعرف السّر الدفين في حرصه على عدم نشرهما في دواوينه. ولا تنحصر المشكلة في قصيدة أو قصيدتين، فيبدو أن عمر يخفي الكثير من هذا القبيل. وتطلق الأديبة زليخة أبو ريشة قريبة الشاعر هذه المفاجأة الأدبية عندما تكتب في إحدى المجلات الأدبية ما معناه:

«أعتقد أن أجمل شعر عمر أبو ريشة لم ينشر بَعْدُ. وعلى الدارسين أن يتمهلوا في أحكامهم حتى يطلعوا على قصائد تفوق ما اشتملت عليه دواوينه عدداً أو حجماً وقيمة فنية».

ـ ٥ ـ رحيل الشاعر:

انتقل الشاعر إلى جوار ربه، ليلة الأحد الموافق ١٩٩٠/٧/١٥ بعد أن أصيب بجلطة دماغية مفاجئة، أقعدته الفراش على أثرها لمدة سبعة أشهر في مشفى الملك فيصل في الرياض. بعد ذلك تم نقل جثمانه المسجى بطائرة ملكية من الرياض إلى حلب، حيث جرت مراسم دفنه، وأقيمت له مآتم التأبين والرثاء في حلب و دمشق وبعقلين في لبنان، ضمن أجواء رسمية وشعبية. ولا غرابة في ذلك فقد شغل الناس في حياته ومماته، واحتل مكانة مرموقة وبارزة بين شعراء العرب الكبار في القرن العشرين. رحمه الله وأسقى ضريحه بوابل رحمته، بمقدار حبه العميق لوطنه، وللعرب في كل مكان، والإنسان أينما وجد.

ونورد هنا آخر ما كتب عمر أبو ريشة من شعر تحت عنوان « رسالة » وفي هذه المقطوعة الشعرية المؤثرة يخاطب قرينته السيدة منيرة مراد:

رفـــيقتي لا تخـــبري إخـــوتي

كيف الردى، كيف عليَّ اعتدى

إن يـــسألوا عـــني وقـــد راعهـــم

أن يبـــصروا هيكلـــي الموصـــدَ

لا تجفلـــي، لا تطرقـــي خـــشعةً

لا تـــسمحي للحـــزن أن يولـــدَ

قـــولي لهـــم ســـافر. قـــولي لهـــم

إنَّ لـــه في كوكـــبٍ موعـــدا

والحق يقال فإن شاعرنا الكبير كان معتداً بنفسه، ينظر إليها نظرة شامخة، ولم يكن ذلك ينبعث عن غرور وعنجهية، وإنما عن قناعة شخصية تجعله متميزاً بين شعراء عصره. فهو لم يهادن الظلم ولم يصمت على ضيم، ولم يسع إلى مكاسب شخصية. وكان متباهياً بما تجود به قريحته، لا يروق له الاستماع إلى آراء أهل النقد. كان سيفاً مسلطاً على الخونة والعملاء وضعاف النفوس، لأنهم يتحملون وزر مسؤولية عما أصاب الأمة العربية المكافحة من ويلات وكوارث ونكسات.

obeikandl.com

عمر أبو ريشة.... وحديث النفس

في نهاية السبعينات من القرن الماضي، كنت مسافراً دون أن أتزود بالخيال والسحر والعطر والدلال، إلى دولة الأمارات العربية المتحدة، بهدف تحقيق واحدة أو أكثر من فوائد السفر التي تحدث عنها أجدادنا العرب القدامى....

وبعد أن أقلعت الطائرة العملاقة من مطار دمشق الدولي وهي من طراز (جامبو جيت ٧٤٧) بالتمام والكمال، ووصلت إلى الارتفاع المطلوب، أكثر من ثلاثين ألف قدم، أضاءت لوحة أنيقة تطلب منا فك الأحزمة، وبعد دقائق اكتشفت أن أحد المضيفين الجويين هو صديقي القديم، الذي شاهدته لأول مرة أثناء تأديتنا للخدمة العسكرية الإلزامية في موقع قريب من ضريح البطل يوسف العظمة، بظاهر جلّق، كما يقول أمير الشعراء أحمد شوقي. وبعد التحيات الطيبات والسؤال عن الأحوال، أقسم عليَّ صديقي القديم أن أنتقل - مشكوراً - من الدرجة السياحية إلى الدرجة الأولى. حاولت الاعتذار لئلا أحرجه لكنه أصر على رأيه، فانتقلت بتثاقل إلى حيث أشار،إلى الطابق الثاني، فشاهدت الشاعر الكبير عمر أبو ريشة، يجلس هناك بكامل أناقته ووسامته وشموخه، وفي صمت ووقار وأرستقراطية سلوكية بادية للعيان. ولا غرابة في ذلك فقد أمضى أكثر من عشرين سنة كسفير لسورية في العديد من الدول، وفي العمل الدبلوماسي الصعب.

وحين جاء صديقي القديم وهو يجر عربة المأكولات الفاخرة، همست بأذنه دون أن أثير الانتباه بأن الشاعر الكبير عمر أبو ريشة، هو معنا في هذه الرحلة، وحبذا لو وجهت تحية تكريمية له من خلال (ميكروفونات) الطائرة، راقت هذه الفكرة الصائبة لصديقي المحب لأهل الأدب وأهل الذوق، وأخبر المعني بالأمر باسم هذه الشخصية الأدبية الفذة التي ذاعت شهرتها الآفاق وأثارت ردود أفعال متباينة

بين محبيه وبين خصومه، من جراء مواقفه الوطنية الجريئة، وبالفعل سمعت كلمات الترحيب الحماسية، لكنها ليست موجهة للشاعر، بل لأحد الفنانين المحليين الذي كان متجهاً إلى دولة الأمارات الجميلة مع بعض الفنانين من أجل إحياء حفلة فنية هناك. تضايقت من هذا الموقف المشين، ولذت بالصمت، واستعنت بالدعاء سلاح المؤمن المعاصر في هذه الأيام. وقلت: ليس بالإمكان أسوأ مما كان. ومن حسن الطالع أن الشاعر الكبير لم ينتبه لما حدث حوله من مفاوضات سرية وهمسات وأمنيات لم تكلل بالنجاح.

وبعد أن عرّفت الشاعر باسمي، أنا العبد الفقير، وبمهنتي كصحافي، وذكّرته - أيضاً - بلقائي الأول به في منزله العامر في بيروت، ثم لقائي الثاني به في منزل عديله الأستاذ الدكتور مدني الخيمي، رئيس جامعة دمشق آنذاك، أستأنس بحديثي وانفرجت أساريره، وخرج عن صمته المهيب وذهوله المرحلي، وفتح قلبه دون تحفظ، فكانت هذه الأسئلة العفوية:

❖ هل من ذكرى أو قصة طريفة ما تزال تتذكرها بعد أن تقاعدت من العمل الدبلوماسي ؟

- في البرازيل حيث مثلت بلادي وزيراً مفوضاً، كان عليَّ أن أقدّم أوراق اعتمادي لرئيس الجمهورية الجنرال (دوترا)، في مقره الصيفي في مدينة (بيتروبوليس). ذهبت إلى هناك وتناولت طعام الغداء في أحد فنادق المدينة، وقد ألقيت بالملف حيث أوراق الاعتماد إلى جانبي غافلني النعاس لاستيقظ بعد دقائق وأرى صالة المطعم وقد انقلبت رأساً على عقب، والمقاعد فوق الطاولات.

وقد اختفى الملف.. قفزت من مكاني أبحث عنه هنا وهناك... وقد اقترب الموعد.. لكن جهودي ذهبت سدى مع أدراج الرياح.. خرجت من الفندق المشؤوم وأنا أتخيل الفضيحة المدوية التي ستنتشر في الأوساط الدبلوماسية، وعلى صفحات الجرائد، انتشار النار بالهشيم. وفيما كنت أضع رجلي خارج الفندق سألني النادل قائلاً:

❖ ألم تفتقد مغلفاً كنت قد وضعته بجانبك ؟

علمتني تلك الحادثة.. أننا نجني الوفاء والإحسان حيث نزرع الكرم والود. فقد كنت أجزلت العطاء لذلك الفتى، فأخذ الملف حين شاهده بيد زميله واحتفظ به، وسلمني إياه قبل تقديم أوراق اعتمادي بدقائق. فاتجهت نحو باب المقر الصيفي لرئيس الجمهورية وكان بجوار مطعم الفندق.

. أول قصيدة نظمتها ؟

. في مطلع العشرينات من القرن العشرين، كنت طالبا في المدرسة الانجيلية في بيروت. وقد أعطيت أستاذ اللغة العربية قصيدة زعمت أنني نسختها عن مخطوطة نادرة، كتبها النابغة الذبياني بخط يده ! فصدّق الأستاذ كلامي بعدما قرأ معانيها وتفحص مفرداتها، واحتفظت بها إدارة المدرسة كوثيقة نادرة. وجاء في تلك القصيدة المزعومة:

أعقل قلوصي أيهذا الحادي

أنا بربع بثينة وسعاد

ربع عفته الريح في إعصارها

إلاّ بقايا النؤي والأوتاد

فوقفت والمعكاء ترزم حسرة

ولغامها متتابع الأزباد

ومن الطريف.... أن تلاميذ المدرسة حفظوا أبياتها على أنها قصيدة مجهولة للشاعر الجاهلي، ولا تزال حتى هذا اليوم محفوظة في أرشيف الجامعة الأمريكية في بيروت.

❖ أول فتاة ظهرت في فضاء حياتك ؟

. كنت طالباً في المرحلة الثانوية.. قبلتها بحرارة... فما احمرت وجنتاها.. فوصفتها بقصيدة (طهر).

❖ **ما هو تعريفك الأخير للحب ؟**

ـ الحب هو الوطن، هو الإنسان، البشرية، الكون اللامرئي. وللحقيقة والتاريخ الأدبي فأنا لم أجرح شعور المرأة، أو أخدش كرامتها في أية قصيدة من قصائدي.

❖ **ماهو السبب الذي دفعك إلى تعلم ست لغات عالمية ؟**

ـ خلال عملي كسفير لسورية، في العديد من الدول الأجنبية، كنت اضطر إلى دراسة لغات البلاد التي أوفد إليها، لأن المرء الذي يريد أن يتذوق آداب الشعوب، ويتفهم تراثها المضيء، يترتب عليه أن يقرأ آدابها باللغة الأم، وليس عن طريق الترجمة، لئلا يفقد النص جماله، والمعنى خفاياه. وأذكر أنني قرأت بالإنكليزية كتاب (فاوست) للشاعر الألماني العظيم (غوته)، راعني رداءة الترجمة وركاكة المعاني، فطلبت من أحد الأساتذة أن يعلمني اللغة الألمانية، وبعد مدة من الزمن أجدتها قراءة وكتابة. وحين قرأت (فاوست) بالألمانية اكتشفت مدى تشويه الترجمة للأعمال الأدبية الخالدة.

❖ **تعقيب معدّ الكتاب:**

ـ حين ترجم الشاعر الإنكليزي أدوارد فيتزجرالد رباعيات الشاعر عمر الخيام إلى الإنكليزية، لم تكن ترجمته وفية للأصل الفارسي، وإن بدت جميلة رائعة، فهي أفكار وخواطر إنكليزية، على الرغم من طابعها الشرقي العام. كما أنه نظم ست عشرة رباعية ليس لها أصل حقيقي.

وهي نسبة ليست يسيرة إذا ما قيست بمجموع الرباعيات التي ترجمها، وهي تسع وسبعون رباعية في الطبعة الأولى.

❖ **هل نظمت الشعر بلغة أجنبية ؟**

ـ نعم نظمت العديد من القصائد باللغة الإنكليزية. وحين وقفت أمام الرئيس الأمريكي جون كنيدي لأقدم إليه أوراق اعتمادي كسفير لسورية في واشنطن، أسمعته بعض هذه القصائد.

❖ **ماذا كانت ردة الفعل ؟**

ـ كان مرتاحاً لما يسمع. وطلب من جنراله رئيس التشريفات أن يلغي له جميع مواعيده في هذا اليوم. وفي اليوم التالي ظهرت صور اللقاء في بعض الصحف الأمريكية وتحت إحداها هذا التعليق الطريف:

(السفير العربي الذي جعل الرئيس كنيدي يرقص الروك أندورل).

❖ **أحب الشعراء غير العرب إليك ؟**

ـ أحب الشعراء إليَّ هم: بودلير، وشلّي، ولوركا، وديباز، وناظم حكمت. مع التنويه بأنني أجيد التركية والأسبانية.

ـ هل تتابع الشعر الحديث ؟

ـ نعم أقرأ الكثير منه ولا أفهمه... !

❖ **ألا تعتقد أن شعرك أيام الشباب، أيام الغضب والثورة، أقوى من شعرك الحالي ؟**

ـ ليس صحيحاً. هذه فكرة عقيمة سطحية. شعري الآن أعمق منه في مرحلة الشباب والاندفاع الحماسي. وفي العمق تكمن الروعة وألق العبقرية وشذاها، ونبل الأحاسيس والمثل العليا المستمدة من أجدادنا العرب.

❖ **ما هو سر إعجابك الشديد بأبي فراس الحمداني ؟**

ـ كان شاعراً عظيماً لم يتكسب من شعره. وامتاز بصدق الشعور وحلاوة اللفظ، ووثبة الفكر الخلاّق، لأنه سبق عصره وزمانه، كما أنه ظلم خلال حياته بصورة فظيعة، حتى إن ابن عمه كان حيادياً بشأن إطلاق سراحه ودفع فديته للروم حين وقع أسيراً في أيديهم. وأخيراً مصرعه المأساوي وهو في ذروة العطاء. وأعتبر قصيدته التي مطلعها: (أراك عصي الدمع شيمتك الصبر) أعظم قصائده من ناحية الجزالة والنغم الرخيم الشجي والصدق. وأعتقد بأن البيت الشهير الذي يقول:

معللـــتي بالوصـــل والمـــوت دونـــه ... إذا مـــتُّ طمآنـــا فـــلا نـــزل القطـــر

obeikandl.com

هو ليس من نظم (زين الشباب...) بل أنه قد دس في هذه القصيدة الخالدة. فالشاعر الذي يقول:

ونحـــن أنـــاس لا توســـط بيننـــا

لنـــا الـــصدر دون العـــالمين أو القـــبر

لا يمكن أن ينطق ببيت شعري، ليس من شيم العرب الأقحاح، لأنه ينطوي على أنانية فردية مفرطة وعلى انعزالية شديدة.

❖ يلاحظ أن البيت الأخير في قصيدتك هو البيت المفاجأة، أو الصاعقة، ألا تؤثر هذه الحالة على وحدة القصيدة ؟

- أنا شاعر قصيدة ولست شاعر البيت الشعري اليتيم. القصيدة عندي وحدة زمانية ومكانية ونفسية لا تتجزأ أختمها عادة بما أُطلق عليه البيت المفاجأة.

❖ هناك قصائد شهيرة لك قصيدة (في طائرة) على سبيل المثال التي نظمتها سنة /١٩٥٣م/ وهي تتحدث عن مشاعر فتاة أسبانية تجاه أجدادها العرب القدامى، دون أن تعرف جنسية من تحدث، وجدنا هذا الموضوع يظهر في قصيدة (غرناطة) التي نظمها الشاعر الكبير نزار قباني في سنة /١٩٦٥ م / كيف تفسر هذا التشابه؟

- أنا فاتح باب التجديد الذي دخله الكثيرون من الشعراء. بعضهم خرج بمهارة وسرعة فائقة، والبعض الآخر لم يخرج بعد، لم يخرج من عباءتي، الذي تقصده هنا ليس سرقة شعرية، كما يقول النقاد القدامى، بل أفضل أن استعمل لفظة (التأثير) و (التأثر) حيث تأثر صديقي الشاعر الكبير نزار قباني بهذه القصيدة فنسج على منوالها...

❖ أخيراً طلبت من الشاعر الكبير أن يزودني بقصيدة غير منشورة في دواوينه المطبوعة على سبيل الذكرى. وافق على ذلك بعد تردد وحيرة واشترط علىّ ألا أنشرها إلاّ بعد أن يسافر إلى الكوكب النائي، يقصد بعد رحيله، والقصيدة المشار إليها نظمها من وحي أحدى زياراته للإمارات العربية المتحدة. وفيما يلي النص الكامل لما نظمه شاعرنا المبدع:

زِد يـــا زايـــد

تلـــك الـــرؤى الغـــوالي يـــا ملعـــب الرمـــال

ومنبـت الرجـال

تبـــسمت للقائـــد رمـــز الإبـــاء زايـــد

❖

الحـــقُّ مـــن أقوالـــه والخـــير مـــن أفعالـــه

والمجدُ من نضاله

وهـــو العزيـــزُ الـــصامد في زحمـــة الـــشدائد

❖

تلفَّـــتَ الـــشرقُ إلى طلعتـــه وهلـــل

وَحَمَلتْ لهُ العُلى

مـــن جـــوهرِ المحَامِـــد قِـــلادةَ القلائِـــد

سِـــرْ في حمـــى الـــرحمنِ في موكـــب الأمـــان

❖

فكُـــلُّ قـــاصٍ دَانِ

ران إليـــك شـــاهد يهتـــفُ زِد يـــا زايـــد

وتتجدد لقاءاتي مع الشاعر الكبير عمر أبو ريشة. وفي كل لقاء كنت أطرح عليه أسئلة عفوية تراعي مقتضى الحال، فكان هذا الحوار الذي دار في منزل

obeikandl.com

شقيق الشاعر الأديب ظافر أبو ريشة، كان ذلك في صيف سنة /١٩٨٨ م/ وبحضور الزميل الصحافي خيري عبد ربه:

❖ **ماذا يقلقك في هذه الأيام ؟**

ـ العقدة النفسية التي تسيطر عليّ هي تداعيات الخطر الصهيوني الحاقد على أبناء الأمة العربية دون استثناء. ولست أذكر أنني اعتليت منبراً، إلاّ وأشرت إلى خطر الصهيونية العالمية وما تعدّه لنا في الخفاء من دسائس ومؤامرات...

❖ **هل تغير موقفك من الشعر الحديث ؟**

ـ نعم أقرأ الكثير منه ولا أفهمه. أسمع بربك هذا المقطع الشعري،أو هذه الصورة الفجة، من مقدمة نثرية مرافقة للقصيدة (الدمشقية):

ممتطياً صهوة سحابة

حصان العشق

أعود بعد ستين عاماً

لأبحث عن حبل مشيمتي

وعن الحلاّق الذي ختنني !

وعن القابلة التي رمتني في طست تحت السرير !!

عائد.. لأملأ جيوبي

بالقضامة، والجانرلك، واللوز الأخضر

أتغلغل في سوق البزورية.. الخ....

ماذا تعني هذه الأقوال وهذه العبارات!؟ حين سألتقي بنزار قباني سأكون صريحاً معه وسوف ألومه على هذه المفردات وتلك الصور الطفولية. ولا يهمني إذا

obeikandl.com

غضب مني أو تضايق. كفانا مجاملات... ولتكشف الأوراق.. وليعد كل شاعر إلى حجمه الطبيعي.

❖ **ما هو أغرب ما شاهدته خلال عملك الدبلوماسي ؟**

- أغرب ما شاهدته معبد «كاجراو» في الهند. وفي هذا المعبد المدهش مجموعة كبيرة من التماثيل المنحوتة بعناية فائقة، حتى كأنها تريد أن تنطق، وهي تهدف إلى تصوير تسامي وعظمة الإنسان من ناحية، وتدنيه عبر غرائزه الطبيعية والشاذة من ناحية ثانية. وفي أحد الأيام شاهدت امرأة أمريكية هرمة تقول متهكمة بصوت عالٍ:

«أقذر من هذه المناظر والتماثيل صانعوها» !!

طبعاً تضايقت، بل استنكرت، قولها الجارح المؤذي بحق الشعب الهندي العريق. فكتبت قصيدة من وحي هذه الحالة، ومما جاء فيها:

كـــم دميـــةٍ، ذلَّ الرخـــامُ
علـــى انتفاضـــتها وهـــان

طلبـــتْ فـــأعطى واشـــرأبَّتْ
فـــانحنى وقَـــستْ فَـــلان !

كـــاجراو.. هـــل مـــن حرمـــةٍ
لـــك عنـــد رأيهـــا تُـــصانْ

كـــم زائـــرٍ أدمـــى فـــؤادَكَ
مـــا أســـرَّ ومـــا أبـــان

أخفـــى الرضـــى، وتظـــاهرت
بالـــسُخط عينـــاه اللَّتـــان

تتحريـــــان وتـــــنهلانِ
وتَـــــسْكران وتحلُمـــــانْ

مزَّقْـــتَ أقنعـــةَ الحيـــاة
ومـــا عليهـــا مـــن دِهـــانْ

وجلوتهـــــــــا في عُرْيهـــــــــا

فترفَّعَـــــتْ بعـــــد امتهـــــان

❖ ما هو الجديد عندك ؟

ـ هناك دراسة مطولة عن «٦٣» شاعرة في الجاهلية، وأكثر من مئة شاعرة في العصر الإسلامي، لم يعرف عنهن في الوطن العربي إلاّ معلومات متناثرة. تجد طائفة من أخبارهن في كتاب (الأغاني)، وأعتبر تراثهن الشعري من أروع ما قرأت في حياتي. وإليك ما قالته الشاعرة عشرقة المحاربية. وهو برأيي من أروع ما قرأت:

لقـد ركـب العـشاق في حلبـة الهـوى

فجهزتمـو سـبقاً وكنـت علـى مهلـي

فمـا لـبس العـشاقُ مـن حلـل الهـوى

ومـا خلعـوا إلاّ الثيـابَ الـتي أبلـي

ولا شـربوا كأسـاً مـن الحـبِّ حُلـوةٍ

ولا مـــــرةً إلاّ وشـــــربهمو فـــــضلي

بعد هذه الرحلة الطويلة لشاعرنا الفذّ، في رحاب الشعر وعلى دروب القوافي، وزياراته للكثير من دول العالم، وحصوله على «١٧» دكتوراه فخرية من جامعات عربية وعالمية، ما يزال شاعرنا الكبير يتابع نشاطاته الجمة، عن طريق حواراته ومحاضراته الفكرية في الجامعات والمؤسسات التعليمية، وإقامة الأمسيات الشعرية في العواصم العربية والأوروبية، من أجل تعريف الآخرين بتراثنا المشرق، وعبقرية اللغة العربية، وجماليتها، مستعيداً انتصارات العرب عبر عصور التاريخ. بالإضافة إلى ذلك فإن شاعرنا ـ كما ذكر لي ـ ما يزال يحتفظ بأعمال شعرية ودراسات أدبية، ما تزال غير مطبوعة أو متداولة، ولعلها تصدر في المستقبل القريب، لأنها تمثل درة في الأدب العربي، وقيمة أبداعية وفنية جليلة الشأن.

obeikandl.com